ومن يرغب فى تهدئة إنسان ملتاع [1] وغاضب لموت عزيز عليه ، فَلْيقُلْ له : هل تتحمل جثمانه أسبوعاً ؟ وسوف يجيب : «لا».

إذن : فبمجرد أن ينزع الله سبحانه السر الذى به كان الإنسان إنساناً ، وهو الروح ، يصبح الإنسان جثة ثم يتخشب ، ثم يَرِمُّ [2].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك وصفاً لمن أخذتهم الصيحة من أهل «مدين» :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا [3] فِيهَا أَلَا بُعْدًا [4] لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أن من يمر على أهل «مدين» بعد ذلك كأنهم لم يكن لهم وجود.

والحق سبحانه يقول :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس]

فالإنسان الذى ارتقى حتى وصل إلى الحضارات المتعددة ، إلى حد أنه قد يطلب القهوة بالضغط على زر آلة ، فإذا شاء الله سبحانه أزال كل ذلك فى لمح البصر.

---

(١) اللوعة : وجع القلب من المرض والحب والحزن ، وقيل : هى حرقة الحزن والهوى والوجد ، وهى أيضاً ما يجده الإنسان لولده وحميمه من الحرقة وشدة الحب . [انظر اللسان - مادة : لوع].

(٢) الرميم : البالى من كل شىء . رم الميت : بلى جسمه ، قال تعالى : ﴿ .. مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] والرمة : العظم البالى . [لسان العرب ، القاموس القويم مادة : رم].

(٣) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] [القاموس القويم مادة (غنى)].

(٤) بعد بَعداً وبُعداً : هلك . قال تعالى : ﴿ .. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] أى : هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود . [القاموس القويم : مادة (بعد)].

هذه الحياة المرفهة يستمتع فيها الإنسان كمخدوم ، وهى غير الجنة التى ينال فيها الإنسان ما يشتهى بمجرد أن يخطر الأمر بباله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود]

ومادة «الغنى» منها : الغناء -بكسر الغين - وهو ما يغنيه المطربون ، ومنها الغناء - بفتح الغين - وهو يؤدى إلى الشيء الذى يغنيك عن شيء آخر ، فالغنى بالمال يكتفى عما فى أيدى الناس .

وهكذا الغناء؛ لأن الأذن تسمع كثيراً ، والعين تقرأ كثيراً ، لكن الإنسان لا يردد إلا الكَلام الذى يعجبه ، والملحِّن بطريقة تعجبه ؛ فالغناء هو اللحن المستطاب الذى يغنيك عن غيره .

والغَـناء ، أى : الإقـامـة فى مكان إقـامـةً تغنيك عن الذهاب إلى مكان آخر ، وتتوطن فى هذا المكان الذى يغنيك عن بقية الأماكن .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا (1) فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود]

أى : كأنهم لم يقيموا هنا ، ويستغنوا بهذا المكان عن أى مكان سواه .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ .. مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (2) ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) غنى القوم فى ديارهم : طال مقامهم فيها . قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود] وقد غنيت الدار بأهلها : عَمُرَتْ بهم . قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس] أى : كأنها لم تعمر . [القاموس القويم : مادة (غنى)] .

(٢) قائم : اسم فاعل من قام . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود] أى : منها ما هو إلى الآن قائم عامر بأهله كالزرع ، ومنها ما هلك فصار كالزرع الحصيد . [القاموس القويم : مادة (قوم)] .

أى : أن الأطلال [1] قائمة بما تحتويه من أحجار ورسوم [2] ، مثل معابد قدماء المصريين ، وأنت حين تزورها لا تجد المعابد كلها سليمة ، بل تجد عموداً منتصباً ، وآخر مُلْقىً على الأرض ، وباباً غير سليم ، ولو كانت كلها حصيداً ؛ لاختفت تماماً ، ولكنها بقايا قائمة ، ومنها ما اندثر [3] .

وهذا يثبت لنا صدق الأداء القرآنى بأنه كانت هناك حضارات ، لأنها لو ذهبت كلها ؛ لما عرفنا أن هناك حضارات قد سبقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ .. أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وكلمة «ألا» - كما عرفنا من قبل - هى «أداة استفتاح» ليلتفت السامع وينصت ، فلا تأخذه غفلة عن الأمر المهم الذى يتكلم به المتكلم ، وليستقبل السامع الكلام كله استقبال المستفيد .

وكلمة «بُعْداً» ليست دعاءً على أهل مدين بالبعد؛ لأنها هلكت بالفعل ، ومادة كلمة «بُعْداً» هى : «الباء» و«العين» و«الدال» وتستعمل استعمالين : مرة تريد منها الفراق؛ والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها :

﴿ .. كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود]

وهى تدل على أنه بعدٌ لا لقاء بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة .

(١) الأطلال : جمع طلل ، وهو ما شخص من آثار الديار القديمة . وقيل : طلل كل شىء شخصه . [انظر : لسان العرب] .

(٢) الرسوم : جمع الرسم . وهو بقية الأثر . وقيل : هو ما لصق بالأرض منها . ورسم الدار : ما كان من آثارها لاصقاً بالأرض .

(٣) الدثور : الدروس وامّحاء الذكر ، وكل شىء امحى وذهب أثره فقد دثر . [اللسان بتصرف] .

والشاعر [1] يقول:

يَقُولُون لا تبعدْ وهُمْ يَدفِنُونَنى وأينَ مَكَانُ البُعدِ إلا مَكانيَا

فهذا هو البعد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود [2].

ولماذا خَصَّ الحق سبحانه ثمود بالذكر هنا، وقد سبق أن قال سبحانه عن أقوام آخرين: «ألا بعداً»؟

لأن الصيحة قد جاءت لثمود [3]، وبذلك اتفقوا فى طريقة العذاب.

وتنتهى هنا قصة شعيب عليه السلام مع مدين، ونلحظ أن لها مساساً برسل مثل موسى عليه السلام، مثلما كان لقوم لوط مساس بإبراهيم عليه السلام.

وهكذا نعلم أن هناك رسلاً قد تعاصرت، أى: أن كل واحد منهم أرسل إلى بيئة معينة ومكان معين. ولأن المرسل إليهم هم عبيد الله كلهم؛ لذلك أرسل لكل بيئة رسولاً يناسب منهجه عيوب هذه البيئة.

وإبراهيم عليه السلام هو عم لوط عليه السلام، وموسى عليه السلام هو صهر شعيب عليه السلام. وقد ذهب موسى إلى أهل مدين قبل أن يرسله الله إلى فرعون.

---

(١) الشاعر هو: مالك بن الريب المازنى، شاعر من الظرفاء الأدباء الفُتّاك، اشتهر فى أوائل العصر الأموى، شهد فتح سمرقند وتنسك ومرض فى مرو وأحس بالموت فقال قصيدته التى منها هذا البيت وعدتها ٥٨ بيتاً أوردها أبو على القالى كاملة فى أماليه (٣/ ١٥١ - ١٥٤) توفى عام ٦٠ هجرية. انظر الأعلام للزركلى (٥/ ٢٦١).

(٢) البعد: الهلاك. بعد: هلك. فقوله تعالى: ﴿.. أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود] أى: هلاكاً لمدين كما هلكت ثمود. والبعد: خلاف القرب، قال تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ .. (٣٨)﴾ [الزخرف] أى: مقدار بعد أحدهما من الآخر. [القاموس القويم].

(٣) قال رب العزة سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥)﴾ [الحاقة] أى: أهلكوا بالصيحة التى تجاوزت الحد فى قوتها. والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)﴾ [الحاقة] أى: زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد. [القاموس القويم ١/ ٤٠٢].

ونحن نعلم أن الأماكن فى الأزمنة القديمة كانت منعزلة ، ويصعب بينها الاتصال ، وكل جماعة تعيش فى موقع قد لا يدرون عن بقية المواقع شيئاً ، وكل جماعة قد يختلف داؤها عن الأخرى.

لكن حين أراد الحق سبحانه بعثة محمد ﷺ كرسول خاتم ، فقد علم الحق سبحانه أزلاً أن رسول الله ﷺ على ميعاد مع ارتقاء البشرية ، وقد توحدت الداءات.

فما يحدث الآن فى أى مكان فى العالم ، ينتقل إلينا عبر الأقمار الصناعية فى ثوانٍ معدودة ، لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ .

أما تعدد الرسل وتعدد اللقطات لكل رسول بالقرآن ، فليست تكراراً كما يظن السطحيون؛ لأن الأصل فى القصص القرآنى أن الحق سبحانه قد أنزله لتثبيت الرسول ﷺ ، فقد كانت الآيات تنزل من السماء الدنيا بالوحى لتناسب الموقف الذى يحتاج فيه الرسول ﷺ إلى تثبيت للفؤاد[1].

ويبيِّن الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يتذكر إخوانه من الرسل وما حدث لهم مع أقوامهم وانتصار الله لهم فى النهاية ، وحين أراد الحق سبحانه أن يقص قصة محبوكة جاء بسورة يوسف.

وهكذا فليس فى القرآن تكرار ، بل كل لقطة إنما جاءت لتناسب موقعها فى تثبيت الرسول ﷺ .

ولنا أن نلحظ أن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ، ما كان يجب أن تنتهى إلا بأن تأتى فيها لقطة من قصة موسى عليه السلام ، وهو صهر شعيب عليه السلام.

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود] . ثبت الأمر : رسخ واستقر ضد تزلزل واضطرب . ويقول تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : يقوى إيمانهم بالقول الصحيح الثابت وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذلك ثبات معنوى . [راجع : القاموس القويم١/ ١٠٥].

والملاحظ أن الحق سبحانه قد ذكر هنا من قصة موسى عليه السلام لقطتين: **اللقطة الأولى**: هى الإرسال بالآيات إلى فرعون .

واللقطة الثانية: هى خاتمة فرعون لا مع موسى عليه السلام ، ولكن مع الحق سبحانه يوم القيامة ، يقول تعالى:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ﴾ [هود]

وكان لشعيب عليه السلام مهمة تثبيت قلب موسى عليه السلام من الهلع ، حين أعلن له أنه خائف من أن يقتله قوم فرعون لأنه قتل رجلاً منهم ، فقال له شعيب عليه السلام ما ذكره الحق سبحانه فى قوله:

﴿ .. نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص]

وهكذا ثبَّته وهيَّأ له حياة يعيش فيها آمناً لمدة ثمانى حجج أو أن يتمها عشر حجج [1] ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي [2] ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص]

---

(١) الحجة - بكسر الحاء - : السنة الكاملة اثنا عشر شهراً ، وجمعها: حجج . قال تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] أى: ثمانى سنوات كاملة . [القاموس القويم].

(٢) أجر فلان فلاناً أجراً: أثابه على عمل أو صار أجيراً له ، وبالوجهين فُسِّر قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. (٢٧) ﴾ [القصص] وسُمِّى المهر أجراً مجازاً . وقال تعالى: ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى: مهورهن . وقال تعالى: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة] أى: ثواب عمله . [القاموس القويم١/ ٨].

وهكذا باشر شعيب عليه السلام مهمة فى قصة موسى عليه السلام.

ومن هذا ومن ذاك يعطينا الحق سبحانه الدرس بأن الفطرة السليمة لها تقنينات قد تلتقى مع قانون السماء ؛ لأن الحق سبحانه لا يمنع عقول البشر أن تصل إلى الحقيقة ، لكن العقول قد تصل إلى الحقيقة بعد مرارة من التجربة ، مثلما قنَّن الحق سبحانه الطلاق فى الإسلام ، ثم أخذت به بلاد أخرى غير مسلمة بعد أن عانت مُرَّ المعاناة.

ومثلما حرَّم الحق سبحانه الخمر ، ثم أثبت العلم مضارها على الصحة ، فهل كنا مطالبين بأن نؤجل حكم الله تعالى إلى أن يهتدى العقل إلى تلك النتائج؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه قد أنزل فى القرآن قانون السماء الذى يقى الإنسان شر التجربة ؛ لأن الذى أنزل القرآن سبحانه هو الذى خلقنا وهو مأمون علينا ، وقد أثبتت الأيام صدق حكم الله تعالى فى كل ما قال بدليل أن غير المؤمنين بالقرآن يذهبون إلى ما نزل به القرآن ليطبقوه.

وفى قصة موسى عليه السلام مثل واضح على مشيئة الحق سبحانه ، فها هو فرعون الكافر قد قام بتربية موسى بعد أن التقطه لعله يكون قرة عين له [١] ، رغم أن فرعون كان يُقتِّل أطفال تلك الطائفة [٢].

ثم تلحظ أخت موسى أخاها ، ويرد الحق سبحانه موسى عليه السلام إلى أمه [٣].

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [القصص].

(٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ [القصص].

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص].

وقد صوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

إذا لَمْ تُصادفْ في بَنِيكَ عِنايةً
مِنَ الله فقدْ كَذبَ الرَّاجِي وخَابَ المأملُ

فَمُوسَى (١) الذى ربَّاهُ جبريلُ كافرٌ
ومُوسَى الذى ربَّاه فِرْعونُ مُرسَلُ

وقد جاءت قصة موسى عليه السلام هنا موجزة ، فى البداية وفى النهاية ؛ ليبيِّن لنا الحق سبحانه أن لشعيب دوراً مع واحد من أولى العزم من الرسل ، وهو موسى عليه السلام.

وكان مقصد موسى عليه السلام قبل أن يبعث -هو ماء مدين، فحدث ما يمكن أن نجد فيه حلاً لمشاكل الجنسين - الرجل والمرأة - وهى رأس الحربة التى تُوجَّه إلى المجتمعات الإسلامية؛ لأن البعض يريد أن تتبذل المرأة فى مفاتنها ، لإغواء الشباب فى أعز أوقات شراسة المراهقة.

لكن القرآن حَلَّ هذه المسألة فى رحلة بسيطة ، ولنقرأ قول الحق سبحانه عن موسى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (٢) .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص]

أى: تمنعان الماشية من الاقتراب من المياه ، وكان هذا المشهد مُلْفتاً لموسى عليه السلام ، وكان من الطبيعى أن يتساءل: ألم تأتيا إلى هنا لتسقيا الماشية؟! وقال القرآن السؤال الطبيعى:

(١) موسى السامرى الذى رباه جبريل خالف أمر ربه بفتنة ، فعزل اجتماعياً وكتب عليه العذاب ، بخلاف موسى الرسول عليه السلام.

(٢) ورد يرد ورداً وروداً: حضر أو أشرف على المكان - دخله أم لم يدخله. وورد الماء: قصده وبلغه ووصل إليه. واسم الفاعل منه: وارد. واسم المفعول: مورود. [القاموس القويم].
أمة من الناس: جماعة كثيرة منهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].
تذودان: تمنعان أغنامهما عن الماء. [كلمات القرآن].

﴿مَا خَطْبُكُمَا (١) .. ﴾ [القصص: ٢٣]

فتأتيه الإجابة من المرأتين:

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ (٢) وَأَبُونَا شَيْخٌ (٣) كَبِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣]

وهكذا نعلم أن خروج المرأة له علة أن الأب شيخ كبير، وأن خروج المرأتين لم يكن بغرض المزاحمة على الماء، ولكن بسبب الضرورة، وانتظرتا إلى أن يسقى الرعاة، بل ظلَّتا محتجبتين بعيداً؛ لذلك تقدم موسى عليه السلام ليمارس مهمة الرجل:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. ﴾ [القصص: ٢٤]

وهذه خصوصية المجتمع الإيماني العام، لا خصوصية قوم، ولا خصوصية قربى، ولا خصوصية أهل، بل خصوصية المجتمع الإيماني العام.

فساعة يرى الإنسان امرأة قد خرجت إلى العمل، فيعرف أن هناك ضرورة ألجأتها إلى ذلك، فيقضي الرجل المسلم لها حاجتها.

وأذكر حين ذهبت إلى مكة في عام ١٩٥٠م أن نزل صديقي من سيارته أمام باب منزل، وكان يوجد أمام الباب لوح من الخشب عليه أرغفة من العجين التي لَمْ تخبز بعد، وذهب به إلى المخبز، ثم عاد به بعد خبزه إلى

(١) ما خطبكما: ما شأنكما؟ أو ما مطلوبكما؟. [كلمات القرآن].

(٢) يصدر الرعاء: يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء. [كلمات القرآن].

والصدور: الرجوع والانصراف. يقال: ورد إلى البئر ثم صدر عنها أي: رجع. وصدر دوابه: أرجعها بعد ورودها. [القاموس القويم].

(٣) شاخ الإنسان يشيخ: أسن أو ظهرت فيه آثار كبر السن، ويطلق الشيخ على من جاوز الخمسين من عمره. وله جموع كثيرة منها: أشياخ، وشيوخ، ومشايخ ورد منها في القرآن جمع واحد هو: شيوخ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ..﴾ [غافر: ٦٧]. [القاموس القويم ١/ ٣٦٣].

نفس الباب. وقال لى: إن هذه هى عادة أهل مكة، إن وجد إنسان لوحاً من العجين غير المخبوز؛ فعليه أن يفعل ذلك؛ لأن وجود هذا اللوح أمام الباب إنما يعنى أن الرجل رب البيت غائب.

وهذا كله مأخوذ من كلمة:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ..﴿٢٤﴾﴾ [القصص]

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يأمر الجنود أن تدق الأبواب لتسأل أهل البيوت عن حاجاتهم.

والأمر الثالث والمهم هو أن المرأة التى تخرج إلى مهمة عليها ألا تستمرىء[1] ذلك، بل تأخذها على قدر الضرورة، فإذا وجدت منفذاً لهذه الضرورة، فعليها أن تسارع إلى هذا المنفذ، ولذلك قالت الفتاة لأبيها شعيب:

﴿..يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]

ويُنهى شعيب عليه السلام هذا الموقف إنهاءً إيمانياً حكيماً حازماً، فيقول لموسى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ .. ﴿٢٧﴾﴾ [القصص]

وهكذا يعلم موسى - عليه السلام - أن شعيباً لا يُلقى بابنته هكذا دون مهر[2]،

---

(١) استمرأ الطعام: وجده مريئاً أى: جيداً مستساغاً. واستمرأ الشىء: أحبه واستزاد منه. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) المهر: الصداق، والجمع: مهور. وهو الصدقة جمعها صدقات. قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً .. ﴿٤﴾﴾ [النساء]. قال فى فقه السنة (٢/ ٢١٨): «لم تجعل الشريعة حداً لقلته، ولا لكثرته، إن الناس يختلفون فى الغنى والفقر، ويتفاوتون فى السعة والضيق، ولكل جهة عاداتها وتقاليدها، وكل النصوص جاءت تشير إلى أن المهر لا يشترط فيه إلا أن يكون شيئاً له قيمة، بقطع النظر عن القلة والكثرة، ويجوز تعجيل المهر وتأجيله، أو تعجيل البعض وتأجيل البعض الآخر حسب عادات الناس وعرفهم».

لا . . بل لا بد أن يكون لها مهر ، وأيضاً تصبح أختها محرمة عليه [١] .

وهذه القصة وضعت لنا مبادىء تحل كل المشكلات التى يتشدق بها خصوم الإسلام.

وها نحن نجد فى الغرب صيحات معاصرة تطالب بأن تقوم المرأة بالبقاء فى المنزل لرعاية الأسرة والأولاد ؛ ليس لأن المرأة ناقصة ، ولكن لأن كمال المرأة فى أداء أسمى مهمة توكل إليها ، وهى تربية الأبناء.

ونحن نعلم أن طفولة الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى كل الكائنات، والأبناء الذين ينشأون برعاية أم متفرغة يكونون أفضل من غيرهم.

وهكذا نتعلم من قصة شعيب عليه السلام مع موسى عليه السلام.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ [٢] مُّبِينٍ ﴾ ٩٦

ونحن نعلم أن الآيات إذا وردت فى القرآن إنما تنصرف إلى ثلاثة أشياء:

آيات كونية تعاصر كل الناس ويراها كل واحد ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والأرض الخاشعة إذا ما نزل عليها الماء اهتزت

---

(١) الجمع بين الأختين من المحرمات تحريماً مؤقتاً ، يزول التحريم بزوال أسبابه ، وذلك بطلاق الأخت طلاقاً بائناً وبعد انقضاء عدتها ، والحالة الثانية هى وفاتها ، ودليل هذا التحريم قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ .. ٢٣ ﴾ إلى قوله: ﴿ .. وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣ ﴾ [النساء] . وانظر فقه السنة (٢/ ١٦٩).

(٢) سلطان مبين: برهان بيِّن على صدق رسالته. [كلمات القرآن].
والسلطان: الملك والقوة والقهر والحجة والبرهان. يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ .. ١٠٠ ﴾ [النحل] أى: قهر الشيطان وغلبته وتسلطه على الذين يتولونه ويتبعونه ، وقال تعالى: ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ٢٩ ﴾ [الحاقة] أى: قوتى زالت وغلبتى وقهرى فلا أستطيع الدفاع عن نفسى. [القاموس القويم].

وربت [1] ، وكلها آيات كونية تلفت العقل إلى النظر فى أن وراء هذا الكون الدقيق تكويناً هندسياً أقامه إله قادر.

وهناك آيات تأتى لبيان صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وهى المعجزات مثل: ناقة ثمود المبصرة [2] ، وشفاء عيسى عليه السلام للأكمه والأبرص [3] بإذن الله.

ثم آيات الأحكام التى تبيِّن مطلوبات المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

وهنا قال الحق سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

فهناك آيات تدل على صدقه ، وفوق ذلك سلطان ظاهر ، إما أن يكون سلطاناً يقهر الغالب ، أو سلطان حجة تقنع العقل.

وسلطان القوة قد يقهر الغالب ، لكنه لا يقهر القلب ، والله سبحانه يريد قلوباً ، لا قوالب؛ لذلك قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [4] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

---

(١) يقول تعالى: ﴿ ..وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]. «أى: فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت أى: ارتفعت ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٠٨).

(٢) قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا .. (٥٩) ﴾ [الإسراء].

(٣) قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]. والكمه: أن يولد أعمى ، أو يفقد بصره ، والأبرص: من أصابه مرض جلدى يحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه [القاموس القويم].

(٤) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً: قتلها هماً وغيظاً وحزناً. قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]. وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] [القاموس القويم ١/ ٥٦] بتصرف.

إذن: فالحق سبحانه يطلب القلوب لا القوالب، قلوب تأتى إلى الله تعالى طواعية بدون إكراه.

لذلك فالسلطان الأهم هو سلطان الحجة؛ لأنه يقنع الإنسان أن يفعل.. ولم يكن لموسى عليه السلام سلطانٌ من القوة ليظهر، بل كان له سلطان الحجة، وهو قول الحق سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ[1] عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)﴾ [الأعراف]

فيرد عليه فرعون:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ[2] (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ[3] لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)﴾ [الأعراف]

وبياض اليد مسألة ذاتية فى موسى عليه السلام، وطارئة أيضاً، فلم تكن مرضاً كالبهاق مثلاً، بدليل الاحتياط فى قوله تعالى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ[4].. (٢٢)﴾ [طه]

أما العصا فهى الحجة التى دفعت فرعون إلى أن يأتى بالسحرة، ليغلبهم موسى أمام الفرعون والملأ، فيتبع السحرة موسى ويؤمنوا برب موسى وهارون[5].

---

(١) حقيق على أن: حريص على أن، أو خليق بأن.. [كلمات القرآن].
(٢) مبين: أى: ظاهر أمره لا يشك فيه. [كلمات القرآن].
(٣) ونزع يده: أخرجها من طوق قميصه. بيضاء: غلب شعاعها شعاع الشمس. [كلمات القرآن].
(٤) إلى جناحك: إلى جنبك تحت العضد الأيسر. [كلمات القرآن].
(٥) قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه].

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قد أرسل موسى عليه السلام بتسع آيات هى : العصا التى تصير ثعباناً يلقف ما صنع السحرة ، واليد البيضاء من غير سوء ، ثم أخذ آل فرعون بالسنين ، ونقص فى الأنفس والثمرات ، لأن الجدب يمنع الزرع ، ونقص الأموال يحقق المجاعة ، وكذلك أرسل الحق سبحانه على قوم فرعون الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع ، هذه هى الآيات التسع (١) التى أرسلها الحق سبحانه على آل فرعون ، بسبب عدم إيمانهم برسالة موسى عليه السلام .

وهناك آيات أخرى أرسلها الحق سبحانه لقوم موسى بواسطة موسى عليه السلام ؛ هى نتق الجبل (٢) ، وضرب البحر بالعصا (٣) ، ثم ضرب الحجر بالعصا لتتفجر اثنتا عشرة (٤) عيناً ، وكذلك نزول التوراة فى ألواح (٥) .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء]. وقال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل]. وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف].

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف] . ونتقه : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم].

(٣) قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] . والطود : الجبل الثابت العالى [القاموس القويم ١/ ٤٠٨].

(٤) قال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

(٥) قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]. والألواح : جمع لوح ، وهو الصفحة العريضة من خشب أو غيره يكتب عليه . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٦].

إذن: فالكلام فى الآيات التسع المقصود بها الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون ، أما هذه الآيات فقد كانت بعد الخروج من مصر أو مصاحبة له كضرب البحر بالعصا.

والدليل على أن قصة موسى مع فرعون خاصة ، أن موسى كانت له رسالتان : الرسالة الأولى مع فرعون ، والرسالة الثانية مع بنى إسرائيل.

ولذلك نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا فى آخر السورة بالخلاف بين موسى عليه السلام وبنى إسرائيل:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ..(١١٠) ﴾ [هود]

إذن: فقصته مع بنى إسرائيل تأتى بعد إيتائه الكتاب ، أى : التوراة.

وهنا يتكلم الحق سبحانه عن آيات موسى عليه السلام مع فرعون فيقول:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) ﴾ [هود]

أى: سلطان محيط لا يدع للخصم مكاناً أو فكاكاً [(١)].

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [(٢)] (٩٧) ﴾

والملأ: هم القوم الذين يملأون العيون ، ويتصدرون المجالس. ويقال: «فلان ملء العين» أى: لا تقتحمه العيون ؛ لأنه واضح ظاهر.

(١) الفكاك: فكاك الرهن والأسير: ما فُكَّ به. والمراد به هنا: الهروب [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٢) الرشد: ضد الغى والضلال ، وضد السفه وسوء التدبير. ورشد فلان: أصاب وجه الصواب والخير والحق. ونفى الرشد نفى للحق والخير والصواب. [القاموس القويم ١/ ٢٦٥] بتصرف.